معارج البيان القرآني (9)

إن الناظر في تحولات الحياة، وجبروت الظالمين والطغاة، قد ينتابه حالة من الحزن الشديد؛ حتى يتمنى أن يعاجلهم العقاب ويرى القصاص العادل أمام عينيه من الظالمين؛ انتقاما للمظلومين، فيأتي بلسم البيان الإلهي القرآني مراعيا الحالة النفسية خطابا للمؤمنين عبر عصور الزمان، في كل وقت وحال، ابتداء من الرسول – ﷺ- وخطابه خطاب لأمته ، ممن حوله ومن بعده، السائرين على خطاه ، فجاء الخطاب بلسما عجيبا يلامس أعماق النفس، موافقا تمام الموافقة للحال، إذ قال: (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ) وما كان الرسول- ﷺ- ليحسب أو يظن، ولا كل مؤمن صادق الإيمان، وإنما كان ذلك مراعاة تمام المراعاة لمقتضى حال الخطاب، لما فيه من عمق التسلية، والتثبيت للمؤمنين؛ وما هو حاصل من شدة جبروت الظلم وحماقته وصلفه، فكان خطاب تسلية وتثبيت، مقرونا بنون التوكيد (فَلَا تَحْسَبَنَّ) ، وإذا كان الرسول الكريم-ﷺ- يخاطب بهذا الخطاب، ويكرر له للتأكيد والتثبيت (فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ) فإنه للمؤمنين كذلك فيه مزيد تسلية وتثبيت، فقد نال رسولهم ما نال من البلاء، فهم من باب أولى في التأسي به والاقتداء، ومثلما هو خطاب تسلية وتثبيت، هو كذلك في فحواه خطاب تهديد ووعيد للظالمين على مر الزمان.

واستعمل البيان المعجز لفظ الحسبان دون سائر أفعال الظن في هذا المقام (وَلَا تَحْسَبَنَّ)؛ لأن الحسبان شيء من الوهم الذي ينتهي بالوصول إلى الحقيقة، وهو ما أفصح عنه البيان القرآني في مواضع متعددة (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ) (وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ) (وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا) (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ).

فالنفوس المؤمنة لا يتلبس بها أدنى وهم في عدل الله ، فضلا أن تظن أو ترتاب، وفي هذا ما فيه من دقة الخطاب، مع الانتهاء إلى الوصول إلى مرامي الحكمة في التأخير والإمهال (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ).

وفي استحضار لفظ الجلالة (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ) استحضار لكل معاني الألوهية، الدالة على الحكم والقضاء، والحساب والجزاء، وذلك بمقتضى ألوهيته لعموم الخلق، جلَّ وعلا.